

تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب

الكاتب: جورج قرم

النَّاشِر: دار النَّشْر: الفارابي، بيروت 2011م

الصفحات: 443



مراجعة: فضل بدير *

فكرة الكتاب

هذا الكتاب لعلّه أفضل تعبير عن موسوعيّة الدكتور جورج قرم ودقته وعمق تفكيره من جهة، وفهمه لأحداث العالم وتألمه لما يحدث من جهة أخرى. تعود فكرة الكتاب بالنسبة إلى المؤلف إلى ملاحظته المبكرة لما كان يقرؤه ويسمعه من تقسيم العالم إلى «نحن الغربيين» و«هم الشرقيين»، وإلى الرّواج الذي عرفته أطروحة صدام الحضارات في التسعينيات من القرن العشرين. ويشير المؤلف في مقدمة كتابه إلى القلق الذي كان يعيشه من النرجسيّة في الثقافة

* دكتوراه في الإدارة الهندسية.

والعلوم الإنسانية الغربية، ونظرة التَّعالِي؛ بل والازدراء في كثيرٍ من الأحيان إلى حضارات الشعوب الأخرى ومؤسساتها وعاداتها.

كما يعبر المؤلف في شرحه لأسباب تأليف هذا الكتاب عن انزعاجه الشديد من توغل الشعور بالتفوق الغربي لدى الكثير من المثقفين العرب، وتبنيهم أطروحات وإشكاليات غربية دون ممارسة أي نقدٍ لتلك الأطروحات التي كانت تقدِّمها الثقافات الأوروبية المختلفة عن عبقيتها وتفوقها.

أقسام الكتاب

ينقسم الكتاب إلى ثمانية فصول على الشكل الآتي:

الفصل الأول: الوظائف العقديَّة والأسطورية لمفهوم «الغرب»

ويعود فيه إلى منابت الفكر الغربي، وإلى حاجة الغرب إلى عدوٍّ مرعب لدوام حياة الأسطورة، وإلى المعادلة الأسطورية أوروبا تساوي الحداثة، وتساوي الغرب، وتساوي مستقبل العالم. وصولاً إلى سؤاله في نهاية الفصل: الفكرة الأوروبية أسطورة أم واقع؟

الفصل الثاني: تحرير التاريخ الأوروبي من شوائب «الغربة» وبناء أسطورتها.

وفيه يتناول أسطورة الحملات الصليبيَّة ودورها في الذاكرة الأوروبيَّة، والتباسات مفهوم الحضارة في الثقافات الأوروبيَّة، إلى أسطورة الفردانيَّة الأوروبيَّة، وصولاً إلى واقع تشرذم أوروبا والتَّنامية غير المتوازنة لدولها، لي طرح التَّساؤل عن «أعجوبة الحداثة الأوروبيَّة في التاريخ البشري».

الفصل الثالث: الموروثات المعقَّدة لقوَّة أوروبا المستقبلية

يتناول فيه دور المدن الإيطاليَّة، وولادة الرأسماليَّة الكبرى منذ القرن الثَّاني عشر، والرُّؤى الجديدة للعالم؛ وصعود الرأسماليَّة الصُّناعيَّة، إلى تمزقات التاريخ الأوروبي، وأسطورة وحدة الغرب.

الفصل الرابع: من موزارت إلى هتلر ما حدث يا ترى؟

وفيه يعود إلى الموسيقى التي يحسبها وجه أوروبا المنسي، وكيف انتهت تلك الأعجوبة الموسيقيَّة، وإلى ضعف التَّحليل الذي يضع النَّازية في سياقها التاريخي، ويُسوِّغ وجودها في مواجهة الشيوعيَّة والبلشفيَّة.

الفصل الخامس: صدام رؤى العالم في أوروبا

في هذا الفصل يشير المؤلف إلى دور ألمانيا الغائبة عن توسع أوروبا في العالم، وإلى شبنغلر وما كتب عن الشَّيخوخة الرُّوحية لأوروبا الغربيَّة، وعن الحروب الأهليَّة وتنامي النَّازيَّة.

الفصل السَّادس: يوميات أوروبِّيَّة في الإبادة اليهوديَّة المرتقبة

عرض فيه أزمة الأيديولوجيَّة الألمانيَّة، والأنثروبولوجيَّة العنصريَّة التي اصطنعت صورة سلبية حديثة لليهود، وولادة العقيدة الصَّهيونيَّة وصولاً إلى تدهور الفضاء الذهنِي الأوروبي الَّذي جعل نجاح هتلر ممكناً.

الفصل السَّابع: عالم القرن الواحد والعشرين كما اصطنعه تاريخ أوروبا

تناول فيه صعود النيولبراليَّة، والفضاء الفكريِّ للحرب الباردة، والتَّكوين العسكريِّ للغرب عبر مُنظمة حلف شمالي الأطلسي، إلى نهاية «الأسطورة الرُّوسِيَّة» وانتصار المحافظة الأميركيَّة الجديدة. ويتناول المؤلف في نهاية هذا الفصل تمزِّق النَّخب خارج أوروبا، والشرق الأوسط في قلب الصدام الجديد للرُّؤى في العالم.

الفصل الثامن: إلى أين تمضي أوروبا بشؤون العالم؟

يعرض المؤلف في هذا الفصل عناوين عدَّة هي - إلى حدِّ كبير - تتويج، أو خلاصة لما جاء في الفصول السابقة عن نرجسيَّة أوروبا والغرب، مسلكيَّات الغرب التي تعيق تعميم الديمقراطيَّة، واستخدام الأنثروبولوجيا السَّياسِيَّة لشرعة التَّدخُّلات في الشرق الأوسط، وصولاً إلى دعوته أوروبا إلى التَّحرُّر من أساطيرها وقيودها الفكريَّة، وإلى حسم حيرتها في وجه الولايات المتَّحدة؛ ليتحقَّق بذلك تحرُّر الفكر الأوروبي، وانفتاحه على العالم.

مضمون الكتاب

يقوم الدكتور قرم في هذا الكتاب بتحليل «الغرب الواحد» وتفكيكه كما ينظر إلى نفسه، وكما ينظر إليه الآخرون بوصفهم كتلاً مُتعدِّدة، منها: الألماني الَّذي أضمر عدائيَّة عنيفة لتصوُّر العالم المنبثق عن الليبراليَّة الإنكليزيَّة، إلى الثَّورة الفرنسيَّة التي أضافت تناقضاً فكرياً آخر لذَيْنك التَّناقضين.

أنتجت تلك التناقضات الفكرية عنفاً داخلياً ما لبث أن أنتج عنفاً عالمياً سُمي بالحربين العالميتين. لم تكن هاتان الحربان عبارةً فقط عن صراع اقتصاديٍّ عسكريٍّ جغرافيسيٍّ؛ بل عبارة عن تمخّض الصراعات الفلسفية والفكرية التصورية في ماهية الحياة والإنسانية.

من النقاط الأخرى التي يعرضها المؤلف أن الغرب ينظر إلى نفسه بوصفه كائناً موجوداً بقوته وتاريخه وثقافته الذاتية التي هي امتداد للحضارتين والفكرين: الإغريقي، والرُّوماني بما هما أوروبيان. ومن ثمّ، فإنّ أوروبا لم تتأثر، أو تعرف، أو تكمل الحضارات التي سبقتها ومنها: العربية والإسلامية؛ بل تحسب نفسها أنها تجسيد لأفضل ما أنتجته الإنسانية والعقلانية التي احتكرت بعض مكونات أوروبا اكتشافها وتمثيلها. وتلك القطيعة التراثية هي أسباب إنتاج الصراع الأوروبي الشرقي، حيث أصبحا كيانين منفصلين وقدرهما الصراع الأزلي.

وهنا، يقوم الدكتور قرم بتأكيد أن البنى والهيكلية الاجتماعية والاقتصادية لأوروبا بدأت بالتمايز عن الشرق ابتداءً من القرن الثامن عشر فقط ومن ثمّ، فلا توجد غيرية أوروبية جينية.

إنّ الاختلاف هو سمة التاريخ الأوروبي؛ بل تمّ إعادة كتابة التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية، وألصق بالحادثة في الحقبين: الرُّومانية، والإغريقية. ولم ينشأ نوع من التاريخ الأوروبي الموحد ليجنبها ويلات الحروب، وهكذا، فإنّ وصف أوروبا بالمسيحية والحادثة والاشتراكية هو انتزاع تبسيطي اعتباري من واقع مُعقّد، فحتى المسيحية كانت مُتعددة ما أدى إلى حروب دينية طاحنة داخل القارة الصغيرة. أمّا أنظمة الحكم السياسية فمتعددة أيضاً من الدوقات والمدن الإيطالية التجارية الصغيرة إلى الملكية ثمّ الثورة الفرنسية، ثمّ الملكية التوارثية الإنكليزية، وإمارات ألمانية. هكذا، اعتاد الفكر الغربي أن يقول الشيء ونقيضه، فهو تارةً يؤكد عبقرية المسيحيين في تكوين الغرب، وتارةً يخرج عن المسيحية، وتارةً يُثمن القيم الفردية، وتارةً يُثمن الوحدة المُترابطة، ويمدح السلام، وتارةً يشني على غزوه للعالم.

يتحدّث الدكتور قرم عن المسيحية وأثرها على التوسعية الأوروبية، على الرّغم من أنّ العبقرية الحقيقية للمسيحية هي في المعنى الذي تسبغه على الوجود، وفي القدرة على التغلب على الموت، وعدم الزوال في العدم.

تنزع الديانة التوحيدية إلى توحيد الجنس البشري تحت راية واحدة، وعندما سيطر الدين المسيحي على النظام السياسي أصبح الانشقاق عن الدين هو انشقاق عن النظام السياسي يستتبعه القمع الفوري والشرس؛ ما أدى إلى محاكم التفتيش وإلى الحروب الشرسية بين الكاثوليك والبروتستانت في القرن السابع عشر، وعلى الرغم من تلك الحروب الشرسية هناك تلازم بين المبشرين الكاثوليك والبروتستانت والعسكريين للتوسعية خارج أوروبا.

كان لا بُدَّ من احتكار مصطلح الحضارة والتحضُّر بوصفها مُقدِّمةً ضروريةً لتلك التوسعية العنيفة، علمًا بأنَّ الحضارة هي ملك جماعي للإنسانية، وهي أفضل ما يمكن أن تقدِّمه المجتمعات الإنسانية من فنِّ وتقنيات وأخلاق.

ولكن بالنسبة إلى الأوروبيين أضحت الحضارة تعني التفوق على شعوب لم تمتلك القوة نفسها، وأصبح معناها التصرف اللبق والمهذب واللباس المعين الذي يختلف عن لباس الهمج من الشعوب الأخرى.

تراكمت مجموعة مُتعدِّدة من الموروثات والعوامل المُتداخلة والمُتشابكة لتشكل القوة المستقبلية لأوروبا كما جاء في الفصل الثالث، وأتخذت تلك الموروثات وجوهاً واتجاهات عدَّة، منها: الحديث عن عبقرية أوروبا التي ركزت على خطِّ بين الثورتين: العلميَّة والصناعيَّة، وزاد عليها الألمان انبثاق البروتستانتية الرأسمالية.

أما الإبداع الفني في جنوى وإيطاليا فقامت الممالك الفاحشة الثراء بالإنتاج الفني الغزير المفرط بالحيوية الذي شجعه الكنيسة التي أخذت تغرف من عجائب الفنِّ المقدَّس، مثل: الرسومات واللوحات الدينيَّة البديعة والمعبرة والموسيقى الدينيَّة.

في تلك المرحلة، تصدَّر نظام المحاسبة، وإنشاء أولى المصارف، وأنظمة التأمين لتمويل الرحلات الاستكشافية، والمبادئ التأسيسية لبورصات البضائع في إيطاليا.

أصبح الجنويون والبندقيون هما أوَّل عيون شبكة الاستعمار، وبوصفها نتيجةً لتلك الحركة التجاريَّة والثراء الفاحش للممالك الإيطاليَّة، ومع بداية الحروب الصليبيَّة راحت عوائل الحاضرات الإيطاليَّة تحشر وسائل ماليَّة ضخمة للتوسُّع، وازدحمت بذلك الركائز الأولى للرأسمالية الحديثة قبل بروز البروتستانتية، واندفع

بعدها البرتغاليون والهولنديون بتشجيع من الكنيسة لتنصير العالم وهدايته إلى الدين المسيحي في القرن الخامس عشر بغزو العالم، هادفين أيضًا إلى اكتشافه، وتدوين ما يرونه وحصر الثروات إظهارًا لجشعهم اللامتناهي، ولم تقم الكنيسة بإدانة تلك الأعمال.

ذلك الاتصال المكثف والتكراري مع الشعوب الأخرى مُضافًا إلى فضوليّة فكريّة وتفاعل نشط مع الثقافات الأخرى، إضافةً إلى التّنوع الكبير الذي تمتاز به أوروبا نفسها وترجمة الأعمال والدراسات العربيّة وهي في قسم منها ترجمة عن الإغريق، زاد عليها الدّارسون العرب والمسلمون؛ ما أنتج توسّعًا في المعلومات والتعلّم، وازداد الإقبال على المدارس والقراءة والكتب؛ وأنتج ثورةً علميّةً معرفيّةً ما لبثت أن تحوّلت إلى ديانة بذاتها، حيث أظهر غاليليو أنّ فصل العلم عن الديانة ممكن، وأنّ كبار العلماء يمكنهم من خلال المراقبة والمشاهدة والمراجعة أن يتقدّموا علميًا من دون بركة الكنيسة.

بذلك، اندمجت تلك العوامل لتنتج صعود الرأسماليّة والتّوسّعيّة، حيث أنتجت خطابًا ميثولوجيًا (أسطوريًا) عن عبقرية الغرب، وملحميًا على نسق ملاحم الإغريق القديم. ذلك التّوسّع أنتج حيويّة اقتصاديّة أدت إلى موجات هجرة مُتعاقة نفّست عن أوروبا الكاهل السّكاني، وأوجدت قواعد تجاريّة ترفد الدولة الأم بالإنتاج الاقتصاديّ وأرباحه.

تلك العوامل المُتداخلة والمُعقّدة واللامركزيّة وغير المُخطّطة في كثير من الأحيان (مثل: تطوّر صناعة السّفن والحرفيين والزراعة التي كانت بحليّة تراكميّة غير منسّقة لخمسة قرون وشكّلت تطوّرًا تدريجيًّا)، تلك العوامل لا يمكن إطلاق كلمة ثورة عليها كونها حدثًا فجائيًّا. إنّ الأساطير التّأسيسيّة التي تستخدم مفهوم الثّورة تُختزل بشكل تبسيطيّ لا يرى الصّراعات العنفيّة والبركانيّة من شقاق دينيّ وعداوات قوميّة عنيفة، ومن قلب للنّظام مع الثّورة الفرنسيّة، وانتشار الأيديولوجيات الماركسيّة، ومجازر الحريين العالميّتين اللّذين استتبعوا بالخوف من القوة السّوفياتيّة. إنّ ما أريد من مصطلح الثّورة هو اختزان النّبل الإغريقيّ والكونيّة الصّوفيّة المسيحيّة، والشغف بالعقل والعلم ليتّم دمج أوروبا في رحمٍ صعوديّ واحد وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة.

ما الذي حدث يا ترى من موزارت إلى هتلر؟

أهم ما يلخص الأعجوبة الأوروبية هو الانفجار الموسيقي الذي يميزها عن كل ما تم إنجازه في أي زمان ومكان.

لقد تم ضم كل شيء في اللحن، مثل: أصوات الطيعة وزفراتها، وما تثيره من مشاعر العالم وأصواته، إضافة إلى المشاعر الإنسانية بتنوعها.

انبعثت الموسيقى خارج الأديرة والممارسات الفطرية في الأوساط الشعبية الحضريّة والرّيفيّة، وفتحت الموسيقى الحدود القوميّة التي كانت تهشم أوروبا في وقت كان الأدب الرّوائيّ محدودًا باللغات القوميّة وفن الرّسم حبيس الأديرة، كانت الكتابة الموسيقية هي اللغة الوحيدة المشتركة تقريبًا بين الأوروبيين، وأتيح للموسيقيين أن يتنقلوا بحريّة وراحة بين الحدود والبلاطات المتضادّة والمتنازعة.

إن من المقاطع الموسيقية المفصلية التي سوف تكون رؤية بالنسبة إلى مستقبل أوروبا هي «هلاك فاوست» بوساطة غوته والتّحالف مع الشيطان؛ بهدف تحصيل السّلطة، وهي ضمت كلّ المعضلات التي سوف تواجه أوروبا ومزقتها من حيث التّحالف مع الشيطان بشكل تجاوز المألوف؛ بهدف الوصول إلى القوّة والسّيطة وذلك كان مؤشّرًا استباقيًا على كلّ ما سوف تتخبّط به أوروبا وأهمّها النّازيّة.

هناك إغفال لإعجاب النّخب الأوروبيّة بصعود النّازيّة، واتّساع رقعة التّعاون مع الجيوش الألمانيّة، وذلك الإغفال المتعمّد هدفه دعم الخطاب الغربيّ وتماسكه المزعوم، فإذا كان تاريخ أوروبا موحّدًا، فكيف راحت المكوّنات الأولى الفلسفيّة للعنصريّة تزدهر في القرن التاسع عشر (داروين وهرميات أنواع الأعراق) وأصبحت أسماء الأعراق، مثل: الجرمانيّ، الآري، الضالي، الفرنسيّ، اليهوديّ تتكاثر في الأدبيّات المختلفة؟

إن من ينظر إلى وجهة النّظرية الألمانيّة للحرب العالميّة الأولى ثمّ الثانية، كما عبّر عنها توماس مان، يرى أنّ ألمانيا وقفت في وجه الغزو الغربيّ الفرنسيّ _ الإنكليزيّ ذي الجذور الاستعماريّة الرومانيّة وضدّ غريبتها.

هكذا، فإنّ هتلر عرف من معين التّعالية الأدبيّة والفلسفيّة الأوروبيّة الشّديدة التّجذّر في القرن الثامن عشر، ولم تكن الحرب العالميّة الثانية حدثًا منعزلًا؛ بل هي تندرج كليًا في امتداد أسباب الحرب الأولى وتبعاتها.

يتعاطى الأوروبيون مع تاريخ الشعوب الأخرى (مصر، والصين،...) كما جاء في الفصل الخامس على أنّه حقب؛ بينما ينفحون تاريخهم وعقودهم ويعظّمون

حجمها؛ ويمكن النظر إلى أن أوروبا هي امتداد لآسيا، وذلك ما يشهد عليه التاريخ؛ إذ إن التطور نشأ بين روما والإسكندرية.

بعد التمزقات العنيفة التي جرّتها الحروب الدينية في أوروبا، تمّ تصدير الأفكار والفلسفات الألمانية لروسيا، حيث نما تيارا «مُحبّي السلافية» و«الضريبين» وملاً صراعهما الفضاء الفكريّ الروسي. وقد عبّر دوستوفسكي عن الصراعات الحضارية والفكرية حينها بقوله: «إنّ أقلّ ما نستطيع قوله: إنه إذا لم تنجح الحضارة في جعل الإنسان أكثر دموية، فإنّها جعلت من تعطّشه للدماء أكثر مكرًا، وأكثر دناءة ممّا كانت عليه في الماضي».

هكذا، أصبحت الثقافة الأوروبية تمشي على غير هدى، وتدخل في تناقضات المُثل الذهنية العسيرة على التّجاوز.

بعد الحرب العالمية الثانية أنقذت الولايات المتحدة الأميركية أوروبا مرتين، وأسست حلف الناتو في العام 1949م، حيث كرّس الحلف مفهوم الغرب الحامي للحريّات وجعله حقيقة جغرافية مُتجدّرة في الواقع، وذلك ما تناوله الفصل السابع بالتفصيل.

أخذ الأوروبيون المثل من المجتمع الأميركي المُتعدّد الثقافات، والرأسمالية الأميركية وهما مفتاح الرخاء والازدهار والاستقرار، وهكذا، أصبح اقتصاد النظام الرأسماليّ الأميركيّ وسياستها الخارجية تعلّقًا بطوباويات سبق لها أن تسببت بشقاء أوروبا، وأضعفت قيم الغرب، وبوصفها نتيجة لتلك الحرب أسست أوروبا دولة إسرائيل، واختصرت مشكلة الشرق الأوسط في عدم وجود الليبرالية والديمقراطية، من أجل غضّ النظر عن الصّدمة النّفسيّة لتأسيس ذلك الكيان.

الخاتمة

في نهاية هذا الكتاب، وفي الفصل الثامن منه يطرح المؤلّف السّؤال: إلى أين تمضي أوروبا بشؤون العالم؟

فيجيب بأنّ الديمقراطية تعرف في عقر دار «الغرب» تقهقرًا أكيدًا عبر التّحالف بين نخب ديمقراطية مع أصحاب الأعمال المسيطرين على وسائل الإعلام؛ ما يجعل الناخب طريدهً سهلةً للأحزاب اليمينية والمتعصبة.

ختامًا، يسأل المؤلّف: بعد ذلك الكمّ من التّجارب الفاشلة، مثل: العولمة في

أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين التي أدت إلى الخراب، لماذا يمضي الأوروبيون والأميركيون بإصرار عنيد بالتبشير بتحرر اقتصاديٍّ أعمى باسم الديمقراطية والتقدم؟!

كيف لم يحترسوا بالتواضع قبل إطلاق تعاميمهم الساذجة، وأفكارهم السطحية عن نشر الديمقراطية والحرية بالعنف والقوة الوحشية المباشرة؟ بعد أفول الاشتراكية التي اتهمت بأنها سبب الكارثة التي ابتليت بها البشرية، أفلت العنان للبرالية المتوحشة، وأصبح الوصول إلى السلطة محصورًا بأصحاب المليارات عبر تحالفهم مع الشركات المتعددة الجنسيات، والمصارف، ومالكي وسائل الإعلام، والمشتغلين بالنفط. وبشكل مريب، يسود صمت مطبق أوساط النخب الأميركية والأوروبية من الدوائر الأكاديمية المعولمة، وتلك التابعة للأجهزة الرقابية، ووسائل الإعلام، والمؤسسات غير الحكومية، لا بل يعتقد أولئك إذا كان هناك من سوء في هذا العالم، فإنَّ السبب الجوهرى يعود إلى وجود حفنة طغاة عالم ثلاثين مُعادين للغرب ولسياساته وتوسُّعه. هكذا، أُطلقت مفاهيم جديدة، مثل: الحوكمة، والشفافية، والمحاسبة، والمساءلة، والتنمية المستدامة،... بمعزل عن حالة الاستغلال الحقيقية التي يتمّ تمجيد تلك المفاهيم لأجلها. وتعمل السياسات الأميركية والأوروبية على التَّسبُّب بشقاكات عميقة في داخل الدول والشعوب المستهدفة آملة أن يجعلها ذلك أكثر خضوعًا للغرب.

ينتهي المؤلف إلى التأكيد أنَّ تدخُّلات الغرب الفظة والعسكرية العنيفة هي العائق الأوَّل أمام نشر حقوق الإنسان؛ لأنَّ جاذبية نموذج الحرية - في حدِّ ذاته - كافية لتجعل الشعوب تتبناه وتطبِّقه بشكل تلقائيٍّ وفطريٍّ.

لماذا الإصرار على إبقاء الإسلام خارج إطار المصالحة المسيحية واليهودية؟! ليس ذلك في جزءٍ منه طريقًا للإبقاء على خصوصية يدعي الغرب حصريتها؟! أليست تلك عادةً فكريةً تسجن المجتمعات المعنية في حالة توحد فلسفيٍّ وثقافيٍّ خطير يناقض ادعاءاتها الفضولية والفكرية والثقافية التي كانت تتميز بها الحضارة الأوروبية؟!